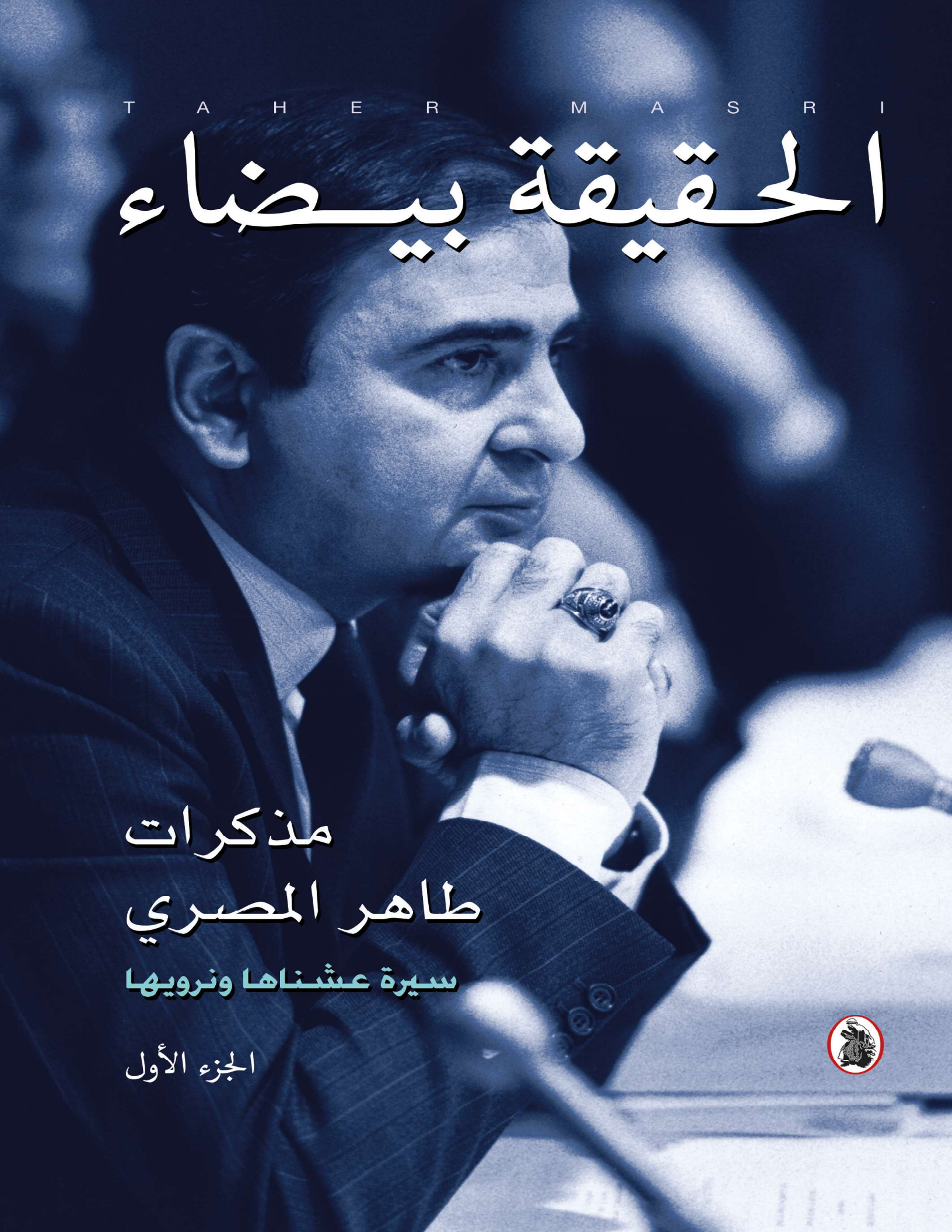

TAHER MASRI

الحقيقة بيضاء

مذكرات طاهر المصري

سيرة عشناها ونرويها

الجزء الأول

الحقيقة بيضـــــاء

الحقيقة بيضـــــاء/ الجزء الأول
مذكّرات طاهر المصري
سيرةٌ عشناها ونرويها
الطبعة الأولى 2021
حقوق الطبع محفوظة ©

المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر
المركزالرئيسي:
المصيطبة - شارع ميشال أبي شهلا - متفرع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانية الدولية LIU - بناية النجوم - مقابل أبراج بيروت
ص .ب 5460/ 11 الرمز البريدي 1107-2190
تلفاكس 92 7078 1 00961 - 707891 1 00961
بيروت - لبنان

التوزيع في الأردن:
دارالفارس للنشر والتوزيع
عمّان ص.ب: 9157، هاتف: 5605431/2 6 00962، فاكس: 4631229 6 00962
E-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الالكتروني: www.airpbooks.com

تحرير: السيدة سناء الجاك

تصميم الغلاف: عمر السمان
الصف الضوئي والتنفيذ الطباعي: المطبعة الوطنية / الأردن

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing.

جميع الحقوق محفوظة. لايسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه ، أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأيّ شكل من الأشكال دون إذن خطي .

الناشر الدولي: رقم: ISBN: 978-614-486-262-9
رقم الإيداع المحلي: 2021/8/4597

الحقيقة بيضـــــاء

مذكِّرات

طاهر المصري

سيرةٌ عشناها ونرويها

الجزءُ الأوّلُ

«الْحَقِيقَة بَيْضَاء فَاكْتُب عَلَيْهَا بِحِبْر الْغُرَاب
وَالْحَقِيقَة سَوْدَاء فَاكْتُب عَلَيْهَا بِضَوْء السَّرَاب»

مَحْمُودٌ دَرْوِيش

المحتويات

الجزءُ الأوّلُ

شكرٌ وتقديرٌ 11

المقدّمة 13

الفصلُ الأوّلُ: من «جبلِ النّارِ» إلى «مجاهلِ» الحياةِ 17

الفصلُ الثّاني: الْحُكُومَة الْفِتْيَة 43

الفصلُ الثّالثُ: إسبانيا الّتي شَفَتْني 77

الفصلُ الرّابعُ: التّجربةُ الفرنسيّةُ: معجمُ الدّبلوماسيّةِ
والسّياسةِ 93

الفصلُ الخامسُ: وزارةُ الخارجيّةِ بعد اليونيسكو ولندن 129

الفصلُ السّادسُ: المواجهةُ المفتوحةُ 149

الفصلُ السّابعُ: اِتّفاقُ القصرِ... 165

الفصلُ الثّامنُ: قتلٌ بطيءٌ لاتّفاقٍ جيّدٍ 195

الفصلُ التّاسعُ: فكُّ الارتباطِ حسمَ خروجي من الحكومةِ 225

الفصلُ العاشرُ: المشاركةُ في حكومةِ الإنقاذِ الاقتصاديِّ 245

الفصلُ الحاديَ عشرَ: طوقُ الشّرعيّةِ الشّعبيّةِ 261

الفصلُ الثّاني عشرَ: من ميثاقِ «القصر الصّغير» إلى
دبلوماسيّةِ كسرِ الجليدِ... 281

الفصلُ الثّالثَ عشرَ: حكومتي... وتحدّياتُ ورشةِ التّأليفِ ---------- 317
الفصلُ الرّابعَ عشرَ: حكومةٌ تسابقُ الزّمنَ---------- 347
الفصلُ الخامسَ عشرَ: دفاعًا عن الدّيمقراطيّةِ... أستقيلُ
ليبقى البرلمان ---------- 401

إهـــــداءٌ

****

إلى أرواحِ شهداءِ فلسطين والأردنّ... أشرفِ النّاسِ وأنبلِ البشرِ

إلى القدسِ الشّريفِ... مَهوى الأفئدةِ والضّمائرِ... عربيّة كانت وستبقى أبدَ الدّهرِ

إلى نابلس وعمّان... مسقطِ الرّأسِ وربيعِ العُمرِ واَمتدادِهِ

****

إلى روحِ أمّي وأبي...

إلى سَمر... رفيقةِ الدّربِ - الزّوجةِ والأمِّ والصّديقةِ

إلى نَشْأَتْ ونادين وعائلاتهم... قُرَّةِ العينِ والفؤادِ

****

طاهر المصري

شكر وتقدير

لم تكن هذه المذكرات لترى النور لولا عصبة متفانية من الأصدقاء الذين رافقوا تدوينها منذ أن نضجت الفكرة في ضميري ووجداني قبل ٢٠ سنة، ويمكنني القول أن هذه المذكرات غير اليوميات التي لا زلت احتفظ بها والمكتوبة بخط يدي.

استمر تدوين هذه المذكرات لمدة اربعة عشر عامًا، ولم يكن الصحفي والباحث الصديق وليد حسني زهره الذي بدأت معه مشروع تدوين هذه المذكرات في تموز يوليو سنة ٢٠٠٧ ليكل أو يمل بالرغم من سلسلة طويلة من الانقطاعات، فله أزجي شكري وتقديري.

ولم تتوانى مديرة مكتبي السيدة جورجيت حوا ببذل كل ما تستطيعه من وقت وجهد في ضبط النصوص والنسخ التي ظلت تخضع للمراجعة والتعديل وأظن أنها استهكلت نصف استهلاك الأردن من الحبر والورق من كثرة حفاظها على الدقة أثناء الطباعة والمراجعة، فلها كامل التقدير والامتنان.

مؤسسة (ذكرى) هي التي تولت إخراج هذه المذكرات بطريقه فنيَّة جميلة وراجعت وحررت المادة بصورة دقيقة . وكانت جلسات التنسيق والتحضير ممتعة ، بالرغم من الاختلاف في بعض الأحداث على بعض النقاط .

فالشكر موصول للسيدة وداد مروة والسيدة سناء الجاك وإلى مؤسسة (ذكرى) . لقد اضفتم زخمًا لمذاكرتي بارك الله لكم وفيكم .

والشكر موصول للعديد من السياسيين والمسؤولين الأردنيين الذين لجأت اليهم في أحايين كثيرة إما لسؤالهم عن حوادث وتواريخ للتأكد منها، أو لإطلاعهم على بعض الفصول لمراجعتها ولتبويب ما تحتاجه من تصويب.

ومن واجبي أن أشكر أصحاب المطبعة الوطنية على كل ما قدموه من تسهيلات وخدمات، وأشيد بكل قوة بالقدرات الفنية الحديثة وبهذا الحرص على خروج المطبوعات بهذه النوعية والذوق والسرعة.

وبالنتيجة فإن هذه المذكرات هي شهادتي الشخصية على ما رأيته وعاينته عن قرب، وأتحمل مسؤولية روايتي هذه بيقين الموقن بالحقيقة التي قال عنها جورجي أمادو»الحقيقة عارية في قعر البئر..»[1].

وها أنا انتشلها من قعر البئر بيضاء «لاشية فيها..».

طاهر المصري

(١) جورجي أمادو: روائي برازيلي شهير، والاقتباس من روايته«ميتتان لرجل واحد».

المقدّمةُ

إنّه القدرُ الّذي لا مفرَّ منه هو مَنْ قادني إلى اَختيارِ معتركِ الشّأنِ العامِّ مسيرةً لحياتي. فقد وجدْتُ نفسي مُنخرطًا في القضايا الوطنيّةِ حتّى قبلَ أن أعيَ أبعادَها، ذلك أنّ نبضَ السّياسةِ والهمَّ الوطنيَّ كانا حاضِرَين في طفولتي، وكان لا بدَّ لهذا النّبضِ من المساهمةِ في تكوينِ شخصيّتي وتحديدِ مسارِ مستقبلي.

فأنا اَبنُ نابلس «جبل النّار»، المدينةِ الّتي ناهضتِ الاحتلالَ الإنكليزيَّ وقادتِ الثّوراتِ الفلسطينيّةَ ضدَّهُ.

كما إنّي تشرَّبْتُ أحاديثَ الكبارِ الّتي كنتُ أسمعُها حتّى قبلَ أن أدركَ أهمّيّتَها وتأثيرَها، بما في ذلك الحديث عن الهجرةِ اليهوديّةِ وعن القمعِ والتّنكيلِ البريطانيَّين بحقِّ الشّعبِ الفلسطينيِّ.

وترعرعتُ عَلَى الْمَوَاقِف الوَطَنِيَّة لعائلتي وَلِوَالِدَيّ تَحْدِيدًا. حملتُ الطّعامَ إلى السّجنِ حيث كان والدي مُعتقلًا بسببِ تلك المواقفِ في منتصفِ خمسينيّاتِ القرنِ الماضي. وكم آلمني الظّلمُ الّذي تعرّضَ له كما غيره من الشّخصيّاتِ الوطنيّةِ.

كذلك، رافقتُ اَنخراطَ عمّي حِكْمَتْ في الحياةِ السّياسيّةِ نيابةً ووزارةً، وعشتُ نبضَ الانتخاباتِ النّيابيّةِ من دونِ فهمٍ عميقٍ لآليّاتِها، ولكنَّ هذه التّجربةَ بقيَتْ حاضرةً، وإنْ في سباتٍ، وما لبثْ أنِ اَستيقظتْ ودفَعَتْني إلى خوضِ غمارِ العملِ البرلمانيِّ لأمنحَ مسيرتي السّياسيّةَ شرعيّتَها الشّعبيّةَ.

وحَفَرَتِ النّكبةُ وما رافقَها من مآسٍ في العام ١٩٤٨ في وجداني، مع اَحتلالِ فلسطين والتّآمرِ الدّوليِّ الّذي لا يزالُ يسمحُ لإسرائيل بِاَستكمالِ مشاريعِها التّوسّعيّةِ.

ولم تمرَّ الزّياراتُ المتكرّرةُ للملكِ عبد الله الأوّلِ إلى نابلس واَستضافةُ عائلتي له مرورًا عاديًّا. فأنا لا أزالُ أذكرُ جلساتِ النّقاشِ الّتي كانت تجمعهُ وشخصيّاتِ المدينةِ، حولَ مستقبلِ الضّفّةِ الغربيّةِ ووجوبِ اَرتباطِها بالأردنّ بتوحيدِ الضّفّتَين. ولا تزال مأساةُ اَغتيالهِ في القدسِ ماثلةً في ذاكرتي.

وترسّخَ الوعيُ القوميُّ في شخصيّتي بدءًا من نابلس ومن ثمّ مع ثورةِ الثّالثِ والعشرين من تمّوز / يوليو ١٩٥٢. ومع الرّئيسِ جمال عبد النّاصر، تفجّرتْ لديَّ ولدى أبناءِ جيلي الأحلامُ والآمالُ والخيباتُ.

ثمّ جاءتْ دراستي في الجامعةِ الأميركيّةِ في بيروت لتمنَحَني فرصةَ المشاركةِ في مختبرِ النّشاطِ الحزبيِّ المُتَنوِّعِ والمُتَعدِّدِ الّذي تَنْبُضُ به، فأبلورَ قناعاتي واتّجاهاتي الفكريّةَ والثّقافيّةَ والسّياسيّةَ.

كلُّ هذه المحطّاتِ شكّلتْ ركيزةً مهمّةً كانت لا بدّ أن تقودَني إلى اَختيارِ الدّخولِ في معتركِ الحياةِ السّياسيّةِ لأكونَ شاهدًا على أخطرِ مرحلةٍ في تاريخِ هذه المنطقةِ، ومع الأسفِ، طُبِعتْ هذه المرحلةُ بالهزائمِ والنّكساتِ الّتي ألمّتْ بالعالمِ العربيِّ، إنْ بفعلِ المخطّطاتِ الدّوليّةِ الّتي كانت تهدفُ إلى حمايةِ إسرائيل ورعايةِ مشاريعِها التّوسّعيّةِ، أو بفعلِ الانفراد في الحكمِ الّتي غلبَتْ على أداءِ قادةِ بعضِ الدّولِ العربيّةِ، في غيابِ الدّيمقراطيّةِ واَنعدامِ ثقافةِ القيادةِ.

أمّا المحطّةُ الأهمُّ في حياتي فهي أنّني حظيتُ بشرفِ العملِ بمعيّةِ الملكِ حسين طوال سبعةٍ وعشرينَ عامًا، وحظيتُ بثقتهِ طيّبَ الله ثراه. ولي الفخرُ أنّني تخرّجْتُ من مدرستهِ السّياسيّةِ، وكنتُ عضوًا في فريقِ عملهِ خلالَ حِقَبٍ حسّاسةٍ ودقيقةٍ من تاريخِ الأردنّ والعالمِ العربيِّ.

واخلصت النصيحة وإبداء الرّأي لجلالة الملك عبد الله الثاني تماما كما فعلت مع والده الملك الحسين طيب الله ثراه من قبله.

لذلك، حرصتُ على الاهتمامِ بكلِّ ما من شأنِهِ أن يقودَ الأردنّ باتّجاهِ التّغييرِ الفعليِّ نحو الدّيمقراطيّة من خلالِ التّشريعِ والمبادراتِ الكفيلةِ بتطوّرِهِ ونموّهِ الاقتصاديِّ ومواجهتِهِ ظروفًا وأوضاعًا صعبةً، داخليًّا وإقليميًّا.

فقد واكبتُ الشّأنَ العامَّ ما يقاربُ ثمانيةً وأربعينَ عامًا. وقضيتُ سبعةَ أعوامٍ في البنكِ المركزيِّ. كما دخلتُ معتركَ العملِ الدّبلوماسيِّ الّذي فتحَ أمامي دروبًا وتجربةً لم تكن متوفّرةً لديَّ، وفتحَ لي آفاقًا فكريّةً وثقافيّةً، وساهمَ في تقدّمي وفي توازُنِ فكري السّياسيِّ.

وتابعتُ خوضَ غمارِ الشّأنِ العامِّ بصفتي نائبًا ووزيرًا ورئيسًا لمجلسِ الوزراءِ ولمجلسِ النّوّابِ ولمجلسِ الأعيانِ. وحرصتُ، حتّى بعد تقاعدي من المناصبِ الرّسميّةِ، على إعلاءِ مصلحةِ الأردنّ فوق أيِّ طموحٍ شخصيٍّ. وحافظتُ عليها بعيدًا عن المناكفاتِ المعهودةِ في أيِّ وسطٍ سياسيٍّ.

ومن خلالِ مشاركتي في صناعةِ القرارِ، وضعتُ نصبَ عينيَّ ما يؤدّي إلى تحقيقِ الأفضلِ لهذا الوطنِ الحبيبِ. ولطالما سعيتُ إلى هدمِ الجدرانِ السّميكةِ الّتي تحجبُ الرّؤيةَ وتعرقلُ مسيرةَ الإصلاحِ والإنماءِ، فأصبتُ أحيانًا، وتجاوزتني في أحيانٍ أخرى التّطوّراتُ والمخطّطاتُ الّتي كانت ولا تزالُ تُرسمُ للمنطقةِ.

ومهما كانتِ الظّروفُ الّتي واجهَتْني أو قَيَّدَتْ عملي، حرصتُ على الالتزامِ بقناعاتي، والتزمتُ بمبدأِ النّقدِ الذّاتيِّ لكي أتعلّمَ من أخطائي وأراجعَ مواقفي وأقيِّمَها حتّى أتمكّنَ من متابعةِ مسيرتي في خدمةِ الشّأنِ العامِّ.

وظلَّ ميزانُ حياتي السّياسيّة يعتمدُ على مبدأِ المكاشفةِ والمواجهةِ وليس على المواربةِ والمهادنةِ. وهذا ما منَحَني في مجملِ رحلتي الكثيرَ من الطّمأنينةِ والرّضا عمّا أفعلُهُ وأقولهُ بكلِّ حرّيّةٍ دونَ التّوقّفِ عندَ حساباتٍ تبدو لي في النّهايةِ خاسرةً تمامًا.

ونظرًا إلى أهمّيّةِ التّطوّراتِ والأحداثِ السّياسيةِ الّتي طبعتْ مسيرتي المهنيّةَ، فكنتُ في خضمِّ مراحلَ واَستحقاقاتٍ مرَّ بها وطني الأردنّ تحديدًا وأمّتي العربيّةِ عمومًا، وبما أنّني عايشتُ حقباتٍ ومراحلَ شهدتْ تغيّراتٍ جذريّةً؛ لذا، عزمتُ على تقديمِ ما خبرتُهُ وما عايشتُهُ في هذا الكتابِ بكلِّ شفافيّةٍ وموضوعيّةٍ.

ويبقى هدفي أن أزوّدَ القارئَ الأردنيَّ والعربيَّ بما علِمتُهُ وتعلَّمتُهُ من دونِ تجميلٍ للوقائعِ، أو تحريفٍ لها بغيةَ تجميلِ صورتي ومسيرتي على حسابِ الحقيقةِ.

فأنا لم أكتبْ هذه المذكّراتِ إلّا بهذه الرّوحِ. قضيتُ السّاعاتِ والأيّامَ في التّدقيقِ والتّمحيصِ، وحرصتُ على تجنّبِ أيِّ اتّهاماتٍ أو الاستنادِ إلى موادّ مزوَّرة.

لقد قلتُ في هذا الكتابِ ما لي وما عليَّ. وأملي أن يجدَ فيه مَنْ يطالعُهُ ما يزيلُ الغموضَ ويسلّطُ الضّوءَ على التّطوّراتِ الّتي أدّتْ إلى ما نحن فيه أردنيّين وعربًا.

وأعتقدُ أنّني قمتُ خلالَ هذه المسيرةِ بكلِّ ما اَستطعتُ إليه سبيلًا.

والله وليُّ التّوفيقِ.

طاهر المصري

آب / أغسطس ٢٠٢١

عمّان

الفصلُ الأوّلُ

من «جبلِ النّارِ» إلى «مجاهلِ» الحياةِ

وُلِدْتُ في الخامسِ من شهرِ آذار / مارس سنةَ ١٩٤٢ في مدينةِ نابلس الفلسطينيّةِ، وحملتُ اَسمَ جدّي طاهر المصري. قد تكونُ عائلتي ثريّةً بحسبِ معاييرِ ذلك الزّمانِ كونُها تعملُ بالتّجارةِ. فقد أسّسَ جدّي سلسلةَ أعمالٍ تجاريّةٍ وصناعيّةٍ رائدةٍ في نابلس، إلّا أنّي لم أولدْ «وفي فمي ملعقةٌ من ذهبٍ» كما يحلو للكثيرينَ وَصْفي.

والدي نَشْأَتْ كان يعملُ إلى جانبِ والدهِ في تجارتهِ. ووالدتي هدِيَّة، لبنانيّةُ الأصلِ من مدينةِ صيدا من عائلةِ الصّلح. قَدِمَ والدُها يوسف إلى يافا ليعملَ قاضيًا مع نهاياتِ الحكمِ العثمانيّ. تَعَرّفَتْ إليها بعضُ عمّاتي ورتَّبْنَ لوالدي مناسبةً لمقابلتِها والتّعرّفِ إليها في منزلِ والدِها.

في ذلك الزّمنِ لم يكنْ مسموحًا للشّابِّ أن يرى الفتاةَ الّتي يريدُ الزّواجَ منها، لذا «اَنتحلَ» والدي صفةَ سائقٍ، وقادَ سيّارةَ العائلةِ الّتي أقلّتْ عمّاتي إلى منزلِها في يافا فرآها وأُعجِبَ بها وتزوّجا سنةَ ١٩٤١، وأقاما في منزلِ جدّي. هناك وُلِدْتُ وكنتُ الأكبرَ سنًّا بين أحدَ عشرَ شقيقًا وشقيقةً.

كان جدّي الحاج طاهر يتمتّعُ بذكاءٍ شديدٍ ويتميّز بأفكارٍ إبداعيّةٍ اَستشرافيّةٍ. فقد أنشأَ شركةً تجاريّةً والعديدَ من المصانعِ، وبنى مطحنةً للحبوبِ، واَستوردَ معدّاتها مباشرةً من أشهرِ صانِعِي هذا النّوعِ من الآلاتِ في سويسرا، فلم يكن لها مثيلٌ في كلِّ فلسطين. اِمتلك عقاراتٍ عديدةً في نابلس وعمّان وبيروت، وأسّسَ مصنعَ «الثّلاث نجوم» للكبريتِ في ثلاثينيّاتِ القرنِ العشرينِ، وكان يستوردُ موادَّهُ الخام من ألمانيا. كما أنشأَ «مَصْبَنةً» أي مصنعَ الصّابونِ النّابلسيِّ الشّهيرِ وماركتهُ «النّعامة»، فضلًا عن عملهِ في تجارةِ الحبوبِ والمواشي.

وكان جدّي رحمهُ اللهُ سابقًا لعصرهِ، مُحبًّا للعلم. لذلك أرسلَ اَبنهُ حكمتْ إلى الجامعةِ الأميركيّة في بيروت فتخرّجَ منها سنةَ ١٩٢٨ ليكونَ من أوائلِ الشّبّانِ من نابلس وعمومِ فلسطين الّذين أنهوا دراستَهم الجامعيّةَ.

واَنخرطَ حكمتْ في العملِ السّياسيِّ، وأصبحَ نائبًا، ومن ثمَّ رئيسًا لمجلسِ النّوّابِ الأردنيّ مرّتَينِ ١٩٥٣-١٩٥٦، ووزيراً في حُكُومَةِ فَوْزِي الْمُلْقِي ، وَهِي الْحُكُومَة الْأُولَى فِي عَهْدِ الْمَلِك حُسَيْن .

ونظرًا إلى شدّةِ إيمانِ جدّي بالتّعليم وتعلّقهِ بهِ، فقد دعمَ المؤسّساتِ التّعليميّةَ. وطلبَ ذاتَ مرّةٍ من عمّي حكمتْ التّبرّعَ نيابةً عنهُ بسبعمائةِ جنيه فلسطينيٍّ خلالَ حفلِ عشاءٍ لإنشاءِ مدرسةِ النّجاحِ الشّهيرةِ في نابلس الّتي أصبحتْ لاحقًا جامعةَ النّجاحِ الوطنيّةِ. وكانتْ قد تأسّستْ سنةَ ١٩١٨ مدرسةً اَبتدائيّةٍ باَسم «مدرسة النّجاح». وفي سنة ١٩٤١ أُطلِقَ عليها اَسمَ «كلّيّة النّجاح الوطنيّة».

لجدّي طاهر خمسة عشر اَبنًا واَبنةً. والدي لم يكملْ تعليمهُ الجامعيَّ. ولم يُمارسِ العملَ السّياسيَّ بخلافِ عمّي حكمتْ. وكان والدي يوصفُ بأنّهُ «جَدَعْ العائلة»، لتمتّعهِ بالشّجاعةِ. لم يكنْ يرضى إلّا بالمواقفِ الصّريحةِ. كان جادًّا وحازمًا يفرضُ هيبتهُ على الآخرين بالاحترامِ أو بالحزمِ إذا تطلّب الأمرُ ذلك. وتواجهَ أكثرَ من مرّةٍ معَ سلطاتِ الانتدابِ البريطانيِّ بسببِ نشاطهِ في التّنافساتِ والنّزاعاتِ السّياسيّةِ.

كان نشاطُ والدي وعلاقاته من أسبابِ نجاحِ عمّي حكمتْ في الانتخاباتِ، إذْ كان يتولّى مهمّةَ إدارةِ حملاتِ المواسمِ الانتخابيّةِ، ويتعاملُ مع المفاتيحِ الانتخابيّةِ في القرى وفي مدينةِ نابلس ويستقطبُ النّاخبينَ، بينما يتولّى عمّي حكمتْ إدارةَ ما تبقّى من العمليّةِ الانتخابيّةِ بحسبِ رأيهِ وخبرتهِ وحنكتهِ.

لم يَرْسَخ الكثيرُ من تفاصيلِ طفولتي في ذاكرتي، إلّا أنّني ما زلتُ أذكرُ الزّياراتِ المتكرّرةَ للملكِ عبد الله الأوّلِ إلى نابلس. فقد اَنطبعتْ في ذاكرتي الطّفوليّةِ وتحديدًا زياراتهُ إلى عمّي الحاج معزوز، الّذي كان كبيرَ عائلتِنا وعميدَها بعدَ وفاةِ جدّي الحاج طاهر. وهوَ اَبنُ عمّ والدي وكنّا نناديهِ «عمّي». تزوّجَ اَبنةَ عمّهِ ولم يُنجبا. وكان رئيسًا لبلديّةِ نابلس لسنواتٍ عديدةٍ، ورئيسَ غرفةِ تجارةِ نابلس. كما كان مُحترمًا في كلِّ المحافلِ.

عندما كان الملكُ عبد الله يزورُ الضّفّة الغربيّة لم يكنْ يقضي ليلتهُ إلّا في نابلس، ولا يحلُّ ضيفًا إلّا في منزلِ عمِّنا الحاج معزوز المصري الّذي كانتْ تربطهُ به صداقةٌ متينةٌ. وكان الملكُ في بعضِ زياراتهِ يصطحبُ معهُ ضيوفهُ من الأمراءِ والزّعماءِ العربِ، فيتوزّعون للمبيتِ في ثلاثةِ بيوتٍ رئيسيّةٍ كبيرةٍ وآمنةٍ جدًّا، تعودُ إلى عمّي معزوز ووالدي نَشْأَتْ وعمّي حكمتْ. وكانتْ تُعَدُّ في ذلك الزّمنِ قصورًا.

وأذكرُ أنّهُ اَصطحبَ في إحدى زياراتهِ الوصيَّ على عرشِ العراقِ الأمير عبد الإله، وبعضَ الأمراءِ اليمنيّينَ.

وكنتُ وإخوتي وأبناء عمومتي حينذاك، من صغار السّنِ في العائلةِ، نجتمعُ في منزلِ عمّي لرؤيةِ الملكِ وتحيّتهِ، كما كنّا نستمتعُ باَستقبالهِ الوفودَ الّتي كانتْ تزورهُ. وكنّا، على صغرِنا، نستمعُ لِما يقالُ في مجلسِ الملكِ عن الأوضاعِ في فلسطين، وأحوالِ الأردنّ. كنّا نراه شيخًا كبيرًا وقورًا بسببِ لباسهِ العربيِّ التّقليديِّ الّذي اَشتُهِرَ بهِ، يصحبهُ حرّاسهُ ومرافقوه. وفي الأعيادِ كان يمنحنُا «عيديّة»، بحسب أعمارنا. وبعضها كان يوازي في تلك الأيّامِ راتبَ موظّفٍ، وكنّا نتباهى بها.

وقد اَرتبطتْ عائلتُنا بالملكِ عبد الله من خلالِ الأفكارِ الوحدويّةِ الّتي كان يؤمنُ بها ويدافعُ عنها ويعملُ على تحقيقِها، بخاصّةً ما كان يُعرَفُ في حينِهِ بمشروعِ «سورية الطّبيعيّة»، وما كان يُطْرَحُ عن مستقبلِ الضّفّة الغربيّة ووجوبِ اَرتباطِها بالأردنّ بوحدةٍ بين الضّفّتَين.

كان الملكُ عبد الله قريبًا إلى القلوب. ولا يمكنُني أبدًا نسيانَ زيارتِهِ الأخيرةِ إلى نابلس، حيثُ اَستراحَ في طريقِهِ لأداءِ صلاةِ الجمعةِ في المسجدِ الأقصى، وذلك يومَ الجمعةِ في العشرين من تمّوز / يوليو من عام ١٩٥١.

أصرَّ عليهِ الحاج معزوز وكبارُ العائلةِ ورجالاتُ نابلس البقاءَ وأداءَ الصّلاةِ في مسجدِ الحاج نمر النّابلسي. أذكرُ جيّدًا أنَّ عمّي معزوز قالَ لهُ: «أرجو أن تُكرمَنا هذه الجمعة بالصّلاةِ في نابلس وقد هيَّأْنا لكم كلَّ شيءٍ، والغداءُ جاهزٌ». فأجابهُ قائلًا: «أبدًا، بلْ في الأقصى».

ولم يستجبِ الملكُ لإصرارِ عمّي، وغادرَ نابلس قاصدًا القدس.

هذا الحديثُ جرى أمامَنا، وقبلَ أن يستقلَّ الملكُ عبد الله سيّارتَهُ الكاديلاك السّوداءَ اللّونِ للمغادرةِ، ولا أذكرُ أنّني شاهدتُ حفيدهُ الأميرَ الشّابَّ الحسين الّذي كان يرافقهُ في تلك الزّيارةِ.

جرتِ العادةُ أن تقومَ شخصيّاتُ المدينةِ، بتوديعِ الملكِ عبد الله إلى حدودِ متصرّفيّةِ نابلس عندَ منطقةِ طلوعِ اللّبن. خرجَ الجميعُ، بِمَنْ فيهم والدي، وودّعوهُ أمامَ مخفرِ اللُبّن الواقعِ بين نابلس ورام الله. وسارَ الملكُ في موكبِهِ، مكملًا طريقهُ إلى القدسِ.

كان والدي قد أعدَّ نفسهُ للتّوجّه إلى فندقِ حرب في مدينةِ رام الله، المصيفِ الجميلِ، لتناولِ الغداءِ هناك بعدَ اَنتهاءِ المراسم في اللّبن. وتابعَ طريقهُ بعدَ مغادرةِ الموكبِ الملكيِّ إلى الفندقِ، وصودفَ أَنَّ اَبنَ أختهِ عبّاس

كان معهُ، فجاء إلى طاولتِنا ليخبرَنا أنّهُ سمعَ إطلاقَ نارٍ أثناءَ نقلِ إذاعةِ القدسِ صلاةَ الجمعةِ من المسجدِ الأقصى، وتبعَ ذلك صراخٌ وضجّةٌ وانقطعَ البثُّ الإذاعيُّ.

وفي ردِّ فعلٍ سريعٍ قالَ والدي: «ثمّةَ شيءٌ حدثَ للملكِ عبد الله في المسجدِ الأقصى وعلينا العودةُ إلى نابلس بأقصى سرعةٍ، قبلَ إغلاقِ الطّرقِ أو حصولِ فوضى فنُحاصَر في رام الله».

غادرْنا رام الله بسرعةٍ. وفي طريقِنا إلى نابلس سمعْنا عبرَ الإذاعةِ أنَّ الملكَ عبد الله قدِ استُشهدَ، وقلْنا: «سبحانَ الله، لو استجابَ الملكُ لنا، لَما حصلَ ذلك». لكنَّ الأعمارَ بيدِ الله، وقد أكرمهُ المولى بأنّهُ ماتَ شهيدًا في المكانِ الأحبِّ إلى نفسهِ وإلى عقيدتهِ، وبقيَتْ ذكراهُ وصورتهُ وأخلاقهُ مطبوعةً في نفسي منذُ تلك اللّحظةِ.

وفي مناسباتٍ عديدةٍ لاحقةٍ، ذكّرْتُ الملكَ حسين بتلك القصّةِ ومجرياتِها أثناءَ حديثِنا عن الوضعِ الأردنيِّ الفلسطينيِّ وعن وضعي أنا معهُ ومع النّظام، بخاصّةٍ أثناءَ الخلافاتِ السّياسيّةِ الّتي كانتْ تحدثُ بينَنا. وقلتُ له ذاتَ لقاءٍ إنّ «جلالتكَ كنتُ شاهدًا عليها بنفسكَ وسمعتَ كاملَ تفاصيلِها بأذنكَ ولا تنساها. وهذه الحادثةُ لمْ تغيّرْ فيَّ شيئًا، بل بقيتُ وفيًّا لمواقفِ عائلتي، وأنا رجلٌ وحْدَويٌّ كما كان الملكُ عبد الله وحْدويًّا. وبقينا معًا متمسّكين بهذه المواقفِ، لكنّكم تتّخذونَ في بعضِ الأحيانِ مواقفَ خاطئةً يتوجّبُ الحديثُ عنها».

سبقَ اغتيالَ الملكِ عبد الله المؤسّسِ، اغتيالُ رئيسِ وزراءِ لبنان وزعيمِ الطّائفةِ السُّنّيّة فيها المرحوم رياض الصّلح، الّذي كان زعيمًا محلّيًّا محبوبًا، وزعيمًا عربيًّا معروفًا، وقد تمَّ اغتيالهُ وهوَ في طريقهِ إلى مطارِ ماركا في العاصمةِ عمّان عائدًا إلى بيروت في السّابعَ عشرَ من تمّوز/ يوليو ١٩٥١، وقد أبطأتِ

السّيّارةُ الّتي تقلّهُ في سرعتِها عند وصولها إلى خطِّ السّكّةِ الحديديّةِ حيثُ كان فريقُ الاغتيالِ بانتظارِه، يراقبُ الطّريقَ من زوايا متعدّدةٍ، فأطلقوا النّارَ عليه وارتقى في الحالِ.

في السّنواتِ الأخيرةِ قبلَ استشهادِه، كان الملكُ عبد الله يشكو إلى أصدقائِه من أنّهُ يواجهُ مشكلةً في أمرِ ولايةِ العهدِ بين ولدَيهِ طلال ونايف لقناعتهِ بأنَّ أيًّا منهُما لم يكنْ مُهيّئًا لاستلامِ الحكمِ من بعدِه.

برزتْ إشكاليّةُ ولايةِ العهدِ عقبَ عمليّةِ الاغتيالِ. واتّفقَ الجميعُ حينَها على تنصيبِ الأميرِ طلال، الابنِ الأكبرِ للملكِ عبد الله الأوّل، ملكًا للمملكةِ الأردنيّةِ الهاشميّةِ، على الرّغمِ من مرضِه. حينذاكَ، وفي اليومِ عينِهِ قرَّرَ مجلسُ الوزراءِ برئاسةِ سمير الرّفاعي تعيينَ الأمير نايف وصيًّا على العرشِ في غيابِ أخيهِ الملك طلال إلى حينِ عودتهِ من العلاجِ في الخارجِ.

لم يكنِ هذا القرارُ بيَدِ «توفيق أبو الهدى» الّذي تولّى رئاسةَ الوزراءِ بعدَ الرّفاعي وحدهُ، بل كانَ للملكةِ زين الشّرف والسّفير البريطانيّ في عمّان تأثيرٌ في هذا الأمرِ.

لم تكنْ بيننا وبين الملكِ طلال تلك العلاقةُ الّتي كانتْ مع الملكِ المؤسِّسِ، وللحقيقةِ فإنّ الوقتَ لم يُسعفْنا لنُوطِّدَ العلاقةَ معهُ، فلمْ يلبثْ أن تنحّى عن الحكمِ بعدَ عامٍ واحدٍ، ليتنازلَ عنهُ لِوَليِّ عهدِهِ الحسين بن طلال يوم الحاديَ عشرَ من آب / أغسطس ١٩٥٢.

لم يكنِ الحسينُ حينَها قد بلغَ سنَّ الثامنةَ عشرةَ، لذا تمَّ تشكيلُ مجلسٍ للوصايةِ على العرشِ حتّى بلوغهِ السّنَّ القانونيّةَ. وفي الثّاني من أيّار / مايو ١٩٥٣ تمّ تتويجهُ، وتسلّمَ سلطاتهِ الدّستوريّةَ. كنتُ آنذاك في الحاديةَ عشرةَ من عمري.

اِحتلّتْ إسرائيلُ أجزاءَ واسعةً من فلسطين سنةَ ١٩٤٨. وكنتُ حينَها في السّادسة من عمري. لم أكنْ أستوعبُ ما يدورُ حولي، ما أذكرهُ هوَ مشهدُ اللّاجئينَ الّذين قَدِموا إلى نابلس من مدنِ فلسطين وقراها، والمخيّمات حولَ نابلس، وترافقَ ذلك معَ تعطيلِ الدّراسةِ في المدينةِ سنةً كاملةً، فقد تحوّلتِ المدارسُ والمساجدُ إلى مأوًى للّاجئين. وتسبّب ذلك بأوضاعٍ سياسيّةٍ واَقتصاديّةٍ واَجتماعيّةٍ جديدةٍ، لم تعهدْها المدينةُ من قبلُ.

بدأتْ عيونُنا تتفتّحُ على تلك الأوضاعِ المأساويّةِ لندركَ بعقليّةِ الأطفالِ وخيالِهم البريءِ أنّ ثمّةَ مشكلةً تحيطُ بنا نتيجةً لمصيبةٍ كبرى وقعتْ في مكانٍ ما، من دونِ فهمِ أبعادِ تلك المصيبةِ.

ونابلس، المعروفةُ تاريخيًّا بـ«جبلِ النّارِ»، كانتْ قبلَ الاحتلالِ الصّهيونيِّ مدينةً مُفعمةً بالحسِّ الوطنيِّ الفلسطينيِّ وتعجُّ بالحركاتِ الوطنيّةِ الفلسطينيّةِ، وبالأحزابِ والسّياسيّينَ الّذين كانوا يتردّدونَ عليها، سواء أكانوا من الشّخصيّاتِ الفلسطينيّةِ الوطنيّةِ أم من شخصيّاتٍ عربيّةٍ أخرى، كما كانتْ مُناهِضةً للاحتلالِ الإنكليزيِّ. وإنّ الثّوراتِ الفلسطينيّةَ ضدّ الاحتلالِ الإنكليزيِّ كانتْ محورَ أحاديثِ الكبارِ، نسمعُها منهم ولا نُدركُ أهمّيّتَها وتأثيرَها، بما في ذلك الحديث عن الهجرةِ اليهوديّةِ وعن القمعِ والتّنكيلِ البريطانيّينِ بحقِّ الشّعبِ الفلسطينيِّ.

شهدَ جيلي مراحلَ صعبةً جدًّا حولَ تطوّرِ المنطقةِ وقضيّةِ فلسطين تحديدًا، فحينَ وُلدتُ كانتِ الحربُ العالميّةُ الثّانيةُ تُشارفُ على الانتهاءِ، وفلسطينُ ترزحُ تحتَ الانتدابِ البريطانيِّ، فيما كانتِ الاستعداداتُ لتأسيسِ الدّولةِ اليهوديّةِ تمهيدًا لإعلانِ قيامِها، تسيرُ على قدمٍ وساقٍ، بعدَ أن سَخّرَ الانتدابُ البريطانيُّ كلَّ إمكانيّاتهِ لتسهيلِ الهجرةِ اليهوديّةِ إلى فلسطين، ودعمِ العصاباتِ الصّهيونيّةِ بالسّلاحِ تنفيذًا لوعدِ «بلفور» المشؤومِ.

وبالرّغم من ظهورِ ملامحِ خطرِ السّياسةِ البريطانيّةِ وعملِها على تهيئةِ الأجواءِ للاحتلالِ الصّهيونيِّ لفلسطين، فقد كانتِ النّعراتُ والخلافاتُ داخلَ فلسطين واضحةً، كان الوضعُ فوضـويًّا، وتبيّنَ كمْ كانتْ بريطانيا منغمِسةً في دعمِ التّنظيماتِ العسكريّةِ الصّهيونيّةِ، وفي تدريبِها وتسليحِها، مقابلَ الفئاتِ المسلّحةِ الفلسطينيّةِ، وزادَ دخولُ الجيوشِ العربيّة إلى فلسطين سوءًا وإرباكًا، ولم يستفقِ الفلسطينيّون إلّا وإسرائيل تُعلِنُ ولادَتَها وتهجِّرُ السّكان من وطنِهم.

في تلك البيئةِ الّتي احتضنَتْها نابلس، وفي تلكِ الأجواءِ السّياسيّةِ والوطنيّةِ والعائليّةِ، تَشَكَّلَ وعيي السّياسيُّ والوطنيُّ باكرًا، وتفتّحتْ مداركي وأفكاري على كلِّ ما كان يحيطُ بنا من أحداثٍ سياسيّةٍ مباشرةٍ لصيقةٍ بحياتِنا اليوميّةِ والمعيشيّةِ، ومن تداعياتٍ واستحقاقاتٍ جرّاءَ الاحتلالِ الصّهيونيِّ لفلسطين، وحالاتِ اللّجوءِ والنّكبةِ الوطنيّةِ والإنسانيّةِ الّتي فرضتْ نفسَها على المجتمعِ النّابلسيِّ داخلَ المدينةِ وخارجَها، وعلى فلسطين عمومًا.

أذكرُ تمامًا ثورةَ يوليو في مصرَ سنةَ ١٩٥٢، ووصولَ جمال عبد النّاصر إلى الرّئاسةِ بعدَ محمّد نجيب، وتكريسهُ شخصيّةً «كاريزميّةً» نادرةً، ألهبَتْ وجدانَ الشّبابِ العربيِّ التّوّاقِ إلى التّحرّرِ من الاستعمارِ الّذي كان لا يزالُ يفرضُ سطوتهُ وقوّتهُ على معظمِ الأقطارِ العربيّةِ.

بالتّالي، شكّلتْ خمسينيّاتُ القرنِ العشرينِ عقدًا أعادَ تشكيلَ الهويّةِ القوميّةِ العربيّةِ، وساعدَ على تنميةِ المشاعرِ القوميّةِ العربيّةِ وتعزيزِها. وكان السّعيُ إلى الوحدةِ بين الضّفّتَين الشّرقيّةِ والغربيّةِ ترجمةً لتلك المشاعرِ.

وكانتْ نابلس في قلبِ كلِّ تلك الأحداثِ، ونحنُ بصفتنا عائلةً سياسيّةً اندمَجْنا كلّيًّا مع خطّ عبد النّاصر.

وكان شعوري القوميُّ ينمو ويكبرُ، ليصبحَ اَرتباطي بالفكرِ القوميِّ وبشخصِ عبدِ النّاصر يفوقُ الوصفَ، لدرجةِ أنّني كنتُ وأبناء جيلي من الشّبابِ نحلمُ بعبد النّاصر ولا نعرفُ سواهُ مِثالًا يُحتذى بهِ.

وكنتُ في الرّابعةَ عشرةَ، عندَما اَرتفعَ رصيدُ عبد النّاصرِ في وجدانِنا بعدَ العدوانِ الثّلاثيِّ على مصر سنةَ ١٩٥٦. كما إنّ الملكَ حسين لم يكنْ يعارضُ هذا الارتباطَ الشّبابيَّ بشخصِ عبد النّاصر وسياساتهِ.

كذلك أذكرُ بعضَ التّفاصيلِ الصّغيرةِ عن المظاهراتِ الّتي عمَّتْ مدينةَ نابلس وباقي المدنِ الفلسطينيّةِ الأخرى خلالَ سنواتِ ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ضدَّ الإنكليز، وضدَّ حلفِ بغداد، وتأييدًا للرّئيسِ المصريِّ جمال عبد النّاصر، كما أذكرُ الأحداثَ الّتي رافقتِ الانتخاباتِ النّيابيّةَ سنةَ ١٩٥٦ ثمَّ أحداثَ سنةِ ١٩٥٧ عندَما أُقيلتْ حكومةُ سليمان النّابلسيّ.

كان الحديثُ في منزلِنا ومنازلِ العائلةِ وفي كلِّ مكانٍ يتمحورُ حولَ تلك الثّورةِ وعبد النّاصر، وحولَ تداعياتِ اَغتيالِ الملكِ عبد الله على الفلسطينيّين، واَحتلالِ فلسطين، وما يمكنُ أن يتعرّضَ له الأردنّ من اَستحقاقاتٍ. وواجهَ أهالي نابلس ومعظمُ المدنِ الأردنيّةِ والفلسطينيّةِ نشوءَ حلفِ بغداد وزيارةِ تمبلر (Sir Gerald Templer) رئيسِ أركانِ القوّاتِ المسلّحةِ البريطانيّةِ، الّذي جاءَ ليروِّجَ لدخولِ الأردنّ الحلفَ بمظاهراتٍ واحتجاجاتٍ شعبيّةٍ.

اِرتفعتْ مكانةُ الملكِ حسين في وجدانِنا، وصارَ في نَظَرِنا مُساويًا في شعبيّتهِ لشعبيّةِ جمال عبد النّاصر عندَما قرّرَ عامَ ١٩٥٦ تعريبَ قيادةِ الجيشِ، فعمدَ إلى تغييرِ القائدِ البريطانيِّ للجيشِ الأردنيِّ الجنرال جون باغوت غلوب (Lieutenant-General Sir John Bagot Glubb) المعروفِ بِاَسم غلوب باشا.

كنّا في شبابِنا نتندّرُ كيفَ أنّ بريطانيا هي الّتي خانتِ العربَ والهاشميّينَ وأقامتْ إسرائيلَ، ثمّ يتولّى ضابطٌ بريطانيٌّ مهمّةَ الدّفاعِ عن فلسطين في مواجهةِ إسرائيل، وكمّ كنّا سذّجًا وربّما ما زلْنا.

وفي أوّلِ زيارةٍ لهُ إلى نابلس عقبَ إعفاءِ غلوب باشا، كادتِ الجماهيرُ الّتي اَحتشدتْ لاستقبالِهِ أن تحملهُ مع السّيّارةِ الّتي كان يستقلّها.

وفي زياراتِهِ المتكرّرةِ بعدَ ذلك إلى نابلس، كنّا نحنُ الطّلبة نستقبلهُ بكلِّ ما أُوتينا من قوّةٍ وحماسةٍ.

وفي عقدِ الخمسينيّاتِ شهدَ الأردنّ حياةً سياسيّةً متقدّمةً مع نموٍّ قاعدةِ التّعدّديّةِ الحزبيّةِ، وبدأَ نطاقُ عملِ الأحزابِ الأردنيّةِ يتّسعُ ويكبرُ تأثيرُها، وأصبحَ عمّي حكمتْ من أقطابِ الحزبِ الوطنيِّ الاشتراكيِّ، وأُجريَتِ الانتخاباتُ النّيابيّةُ سنةَ ١٩٥٦، وتمّ تأليفُ حكومةِ سليمان النّابلسي الّتي أخذتْ بُعدًا قوميًّا كبيرًا، وكنّا نرى أمامَنا الزّعماءَ السّياسيّينَ والنّاسَ وهم يتردّدونَ على بيوتِنا في نابلس أو عندَما نسافرُ إلى عمّان.

لكنّ هذا النّموّ واجهَ اَنتكاسةً ديمقراطيّةً في الأردنّ سنةَ ١٩٥٧ عندَما أُقيلتْ حكومةُ سليمان النّابلسي وأُعلنتِ الأحكامُ العرفيّةُ، وبدأتِ السّلطاتُ تتعسّفُ من خلالِ ممارسةٍ تتناقضُ وخطَّ الملكِ حسين في سعيٍ إلى تغيّرٍ جذريٍّ، واَنعكسَ ذلك، بطبيعةِ الحالِ على سلوكِ السّلطاتِ التّنفيذيّةِ والأمنيّةِ في تعاملِها مع النّاسِ. وقد عانَيْنا نحنُ كعائلةٍ من تلك التّعسّفاتِ الخطيرةِ، شأننا في ذلك شأن جميعِ المواطنين.

كان عمّي حكمتْ نائبًا ورئيسًا لمجلسِ النّوّابِ، وبسببِ «خطّهِ» وموقفهِ السّياسيِّ في ذلك الوقتِ باتَ جليًّا أنّهم كانوا يريدونَ إقصاءَهُ.

لذا، وفورَ إقالةِ حكومةِ النّابلسي، أُعلنتِ الأحكامُ العرفيّةُ مباشرةً ووُضِعَ الكثيرُ من النّاسِ في نابلس تحتَ الإقامةِ الجبريّةِ أو جرى اَعتقالُهم، ومن بينِهم عمّي حكمتْ.

والمفارقةُ أنّي تعرّضتُ إلى مثلِ ما تعرّضَ لهُ عمّي بعدَ أربعين سنةً عندَما اَنتخِبتُ رئيسًا لمجلسِ النّوّابِ، ومن أصحابِ التوَّجهات السّياسيّةِ عينِهم ومن الوجوهِ نفسِها، وإنِ اَختلفتْ تفاصيلُها وأشكالُها. إلّا أنّ مضمونَها كان واحدًا، وما قيلَ عن عمّي حكمتْ عام ١٩٥٧ قيلَ عنّي لاحقًا. فقدْ وُصِفتُ بأنّي ملتزمٌ بـ «خطٍّ» وطنيٍّ أو رأيٍ مستقلٍّ وحرٍّ لا يُناسبُ المرحلةَ المقبلةَ، كما سيظهرُ في الفصولِ اللّاحقةِ من الكتابِ.

في تلك المرحلةِ، اَضطرَّ العديدُ من الشّخصيّاتِ الوطنيّةِ للهربِ خارجَ الأردنّ وتحديدًا إلى سورية ومصر، وأذكرُ أنَّ سعيد العزّة، الّذي كان من أقطابِ الحزبِ الوطنيِّ ونائبًا عن الخليل، اَضطرَّ إلى الاختباءِ في بيتِ عمّي حكمتْ، الّذي كان هو الآخرُ يخضعُ للإقامةِ الجبريّةِ في منزلِه، وكذلك والدي الّذي وُضِعَ هوَ الآخرُ في الإقامةِ الجبريّةِ.

وتطوّرتْ حالةُ الأحكامِ العرفيّةِ واَرتفعتْ وتيرةُ إرهابِ النّاسِ والتّضييقِ عليهم. وذاتَ يوم حينَ كانَ والدي تحتَ الإقامةِ الجبريّةِ، سمعَ ضجّةً في الحديقةِ حيثُ يرابطُ شرطيّان للمراقبةِ فخرجَ لمعرفةِ ما يجري، وإذا بأخي سامر يسارعُ إلى والدي قائلًا: «تعالَ شوف الشّرطي شو عم يعمل».

كان أحدُ الشرطيّين يُلقي القبضَ على شابٍّ يسيرُ وحيدًا ومنفردًا في الشّارعِ وهوَ يهتفُ هتافاتٍ وطنيّةً، كان يسحبهُ بالقوّةِ لاعتقالِه داخلَ حديقةِ منزِلنا، فتدخّلَ والدي وأبلغَ الشّرطيَّ رفضهُ توقيفَ النّاسِ في منزلِه بغيةَ اَعتقالهم، وقالَ للشّابِّ: «روح أطلع وخلّي الشّرطي يبلّط البحر».

بالطّبعِ ، كتبَ الشّرطيُّ تقريرًا كاذبًا بحقِّ والدي، اَدَّعى فيهِ أنّهُ شتمَ الملكَ حسين. وكانتْ هذه التّهمةُ جاهزةً بصفتها ماركةً مسجّلةً، وكان رجالُ الشّرطةِ والمُخبِرون وغيرُهم يستخدمونَها لإلصاقِها بِمَنْ يجبُ التّنكيلُ بهِ ومعاقبته.

وشاءَتِ الصّدفُ في إحدى لقاءاتي الشّعبيّةِ في عمّان أنْ ألتقيَ بالشّرطيِّ الّذي قدّمَ نفسهُ لي بأنّهُ هوَ كاتبُ التّقريرِ الكاذبِ بحقِّ أبي.

وهكذا خضعَ والدي لمحاكمةٍ عسكريّةٍ وهوَ في الإقامةِ الجبريّةِ، وحُكِمَ عليهِ بالسّجنِ ثلاثةَ أشهرٍ، وكنتُ كلَّ صباحٍ قبلَ توجّهي إلى مدرسةِ النّجاحِ، أذهبُ إليهِ حاملًا الفطورَ من حمّصٍ وفولٍ وخبزٍ، ولأسبابٍ أمنيّةٍ لم يكنْ مسموحًا لنا إرسال وجباتِ الغداءِ والعشاءِ، وكنتُ أقودُ سيّارةَ العائلةِ الأميركيّةِ الطّراز «ناش»، ولم أكنْ قد حصلتُ على رخصةِ قيادةٍ نظرًا إلى صغر سنّي، إلّا أنَّ مديرَ السّيرِ «عزير أيّوب» إلى جانبِ العديدِ من المسؤولين الحكوميّين كانوا يتعاطفونَ مع قضيّةِ والدي، ما سهّلَ حصولي على الرّخصةِ بعدَ أنِ اَجتزتُ اَختبارَ القيادةِ بنجاح في العشرين من أيلول / سبتمبر ١٩٥٨ وكنتُ آنذاك دون السّادسةَ عشرةَ من عمري.

بعدَ مرورِ نحوِ شهرٍ ونصفِ الشّهرِ على سجنِ والدي، جرتْ موجةُ اَعتقالاتٍ واسعةٌ في نابلس وتمَّ فيها اَعتقالُ عمّي الكبيرِ الحاج نايف، وهوَ رجلٌ متديّنٌ لم تكنْ لهُ أيّةُ علاقةٍ بالسّياسةِ، ولا يعرفُ عنها إلّا ما يسمعُه من النّاسِ، فقد كان مُنشغلًا بالتّجارةِ ومتابعةِ شؤونِ العائلةِ ورعايتِها.

في صباحِ اليومِ التّالي لاعتقالِ عمّي نايف، ذهبتُ كعادتي كلَّ صباحٍ إلى السّجنِ حاملًا الفطورَ لوالدي، فأخبروني أنّهُ غيرُ موجودٍ. سألتُهم: «أينَ ذهبتمْ بهِ؟»، فقالوا إنّهم لا يعرفونَ عنه شيئًا، إذ جرى ترحيلهُ بسيّاراتٍ عسكريّةٍ معَ ثلاثين معتقلًا آخرين من رجالاتِ نابلس إلى جهةٍ مجهولةٍ.

وفوجِئْنا بعدَ أيّامٍ من البحثِ المتواصلِ مع أقاربِ السّجناءِ الآخرينَ، بترحيلِهم إلى سجنِ الجفرِ الصّحراويِّ في معان، بعدَ أيّامٍ أُعْلِنَ عمّا يُعرف بالاتّحادِ الهاشميِّ سنة ١٩٥٨، وصدرَ عفوٌ عامٌّ عن العديدِ من المُعتقلين بِمَنْ فيهم مُعتقلِي نابلس في سجنِ الجفرِ، وتمّ الإفراجُ عنهم فعادوا إلى المدينةِ وسطَ فرحةٍ شعبيّةٍ واَحتفالاتٍ واسعةِ النّطاقِ.

إلّا أَنّ فرحتَنا بعودةِ والدي إلينا لم تدمْ طويلًا، فقد داهمتهُ في الشّركةِ قوّةٌ أمنيّةٌ بقيادةِ ضابطِ مباحثِ وضابطِ شرطةٍ بعدَ يومَين فقط من الإفراجِ عنهُ لإعادتهِ إلى السّجنِ مرّةً أخرى. وحينَ سألَهم عن السّبب، قالوا له: «لأنّكَ لم تتمَّ مدّةَ محكوميّتكَ». فردَّ: «صدرَ عفوٌ عامٌّ»، فردّوا بأنّه: «ليسَ ضمنَ مَنْ شمَلهم العفوُ». فأشارَ إلى أنّهُ أكملَ محكوميّتهُ، وقالَ: «أخذتموني من السّجنِ إلى معان وقضيتُ أكثرَ من ثلاثةِ أشهرٍ في السّجنِ». فأجابوه: «لا. هذا عقابٌ منفصلٌ عن عقابِ السّجنِ أو الحكمِ من المحكمةِ العسكريّةِ». واَقتادوهُ إلى السّجنِ من جديدٍ.

كنتُ أقفُ إلى جانبِ والدي في الشّركةِ أستمعُ إلى ذلك الحديثِ، وعدْتُ إلى البيتِ لأُحضرَ له بعضَ حاجياتهِ، ولن أنسى ما حييتُ حالةَ القهرِ والغضبِ الّتي كنتُ أعيشُها في تلك اللّحظةِ، أخبرتُ أمّي بما جرى ودخلتُ الحمّام حتّى لا تغلبَني دموعي أمامَها. وبيني وبين نفسي لم أشعرْ أنّ الدّموعَ كانتْ تتساقطُ من عينيَّ، بل تنطلقُ كالحجارةِ، وكأنّي كنتُ أقذفُها وأصوِّبُها على عدوِّي، لأنَّ الشّعورَ بالظّلمِ هوّ شعورٌ إنسانيٌّ مدمِّرٌ، وقد أثَّرَ في حياتي لاحقًا وسوفَ تلاحظُ يا قارئي في السّردِ المقبلِ كم أثَّرَ ذلك فيَّ وكيف.

مَسَحْتُ دموعي وعدتُ إلى والدي في سجنهِ لأسلِّمهُ الأغراض الّتي يحتاجُها لإتمامِ محكوميّتهِ، لكنَّ كلّ تلك الانفعالاتِ بدأَتْ تحفرُ في معدتي قرحةً، تفاعلتْ حدّتُها مع المحطّاتِ الأليمةِ والصّعبةِ الّتي كانتْ تواجهُني.

كان الحاكمُ العسكريُّ العامُّ في ذلك الوقتِ حابس المجالي، والحاكمُ العسكريُّ لنابلس بهجت طبّارة الّذي أصدرَ أمرَ اَعتقالِ والدي. ودارتِ السّنواتُ بنا دورَتَها ليصبحَ د. سطام حابس المجالي عديلي. وعندما أصبحتُ وزيرًا للخارجيّةِ عام ١٩٨٤، قمتُ بتعيينِ هاني بهجت طبّارة سفيرًا في لندن خلفًا لي.

مسيرتي الدّراسيّةُ بدأتْ في كلّيّةِ «النّجاح الوطنيّة» منذُ الرّوضةِ حتّى تخرّجي منها في العامِ الدّراسيِّ ١٩٥٩. ولم أعرفْ مدرسةً غيرَها، بالرّغمِ من أنّ والدي أرسلَ بعضَ أخوتي للدّراسةِ في رام الله والقدسِ، لكنّهُ آثرَ بقائي قريبًا منهُ في مدرسةِ النّجاحِ.

بعدَ تخرّجي من المدرسةِ، كنتُ أرغبُ في التّوجّهِ إلى الولاياتِ المتّحدةِ الأميركيّةِ لاستكمالِ دراستي في إدارةِ الأعمالِ، إلّا أنّ والدي رفضَ ذلك بشدّةٍ، وأصرَّ على اَلتحاقي بالجامعةِ الأميركيّةِ في بيروت، وكنتُ قد رفضتُ قُبَيْلَ تخرّجي اَقتراحهُ بأن أبقى في نابلس لأفتحَ دكّانًا أو أحصلَ على وكالةٍ لإحدى شركاتِ الطّيرانِ وأتزوّجَ وأُكوِّنَ أسرةً على غرارِ ما فعلَ هوَ بنفسهِ.

كانتْ كلّيّةُ «النّجاح الوطنيّة» قد حصلتْ على تسهيلاتٍ لقبولِ طلّابها الأوائل في الجامعةِ الأميركيّة في بيروت. وكان مديرُ الكلّيّةِ آنذاكَ قدري طوقان، الّذي كان يُعَدُّ من الشّخصيّاتِ العلميّةِ العربيّةِ المؤثّرةِ وأحدِ أعلامِ الثّقافةِ العربيّةِ الفلسطينيّةِ البارزينَ والمعروفِ في العالمِ العربيِّ لمكانتهِ العلميّةِ. وكان قد مثّلَ نابلس أكثرَ من مرّةٍ في مجلسِ النّوّابِ وأصبحَ وزيرًا للخارجيّةِ لفترةٍ قصيرةٍ، وكان تربطهُ صداقةٌ بوالدي.

في ذلك الوقتِ كنتُ في السّابعةَ عشرةَ من عمري، وبيروتُ لم تكنْ غريبةً عنّي؛ فقد كنّا نذهبُ بصحبةِ أمّي اللّبنانيّةِ الأصلِ لزيارتِها، كما كان والدي يستأجرُ منزلًا في حمّانا كلَّ صيفٍ، نقيمُ فيه ما بين أربعةٍ وستّةِ أسابيع.

وكانتْ بيروت عاصمةَ الحرّيّةِ والثّقافةِ والفنونِ والانفتاحِ والتّعدّدياتِ السّياسيّةِ والحزبيّةِ، واَستحقَّتْ بجدارةٍ لقبَ «سويسرا الشّرق»، لِما لها من خصائصَ تتمتّعُ بها، لم تتوافرْ في عواصمِ العالمِ العربيِّ الأخرى آنذاكَ.

وساهمتْ سنواتُ الدّراسةِ فيها في تشكيلِ الوعاءِ الجديدِ لشخصيّتي وهويّتي. إذْ شعرتُ للمرّةِ الأولى في حياتي باَستقلاليّتي عن العائلةِ وعن والدي تحديدًا، أدركتُ أنّ عليَّ تحمّلَ مسؤوليّاتي تجاهَ نفسي ومواجهةَ الحياةِ بمفردي لِأَبْنِيَ مستقبلي وأَنتهجَ خطّي في الحياةِ.

فالفارقُ كبيرٌ بين أن تعيشَ في بيئةٍ مُحافظةٍ وشبهِ مُنغلقةٍ كما هي الحالُ في نابلس، وبين أن تعيشَ في بيئةٍ منفتحةٍ تمامًا كما كانتْ حالُ العاصمةِ بيروت، فضلًا عن توّهجِ الرّوحِ القوميّةِ واَنبعاثِها الطّاغي، سواء من خلالِ حزبِ البعثِ العربيِّ الاشتراكيِّ أو من خلالِ الفكرِ النّاصريِّ أو التّجديديّين، أو حركةِ القوميّين العربِ، الّتي كانتْ الأقربَ إلى فكري السّياسيّ، وعلى د. جورج حبش.

وكانتِ الجامعةُ الأميركيّةُ مصدرًا لكلّ هذا التّنوّعِ والتّعدّدِ، ومن أهمِّ الجامعاتِ في العالمِ العربيِّ، كما كانتْ المحطّةَ الأولى في حياتي للتّعرّفِ إلى عوالمَ وفضاءاتٍ جديدةٍ وثقافاتٍ وتجاربَ وأشخاصٍ من مختلفِ الجنسيّاتِ والثّقافاتِ.

وللحقيقةِ، فإنّ السّنةَ الأولى في الجامعةِ الأميركيّةِ أضافتِ الكثيرَ إليَّ، ففيها يتمّ تحضيرُ الطّلبةِ للتّعمّقِ في اللّغةِ الإنكليزيّةِ من خلالِ تدريسِ عيونِ الأدبِ الغربيِّ من شكسبير (Shakespeare) إلى ديكنز (Dickens) وغيرِهم، بالإضافةِ إلى مختلفِ العلومِ، ما مَنَحَني نقلةً ثقافيّةً مختلفةً تمامًا عن أسلوبِ التّعليمِ ومضمونهِ الّذي كنّا نتلقّاهُ في كلّيّةِ النّجاحِ في نابلس.

في تلك الأجواءِ، بدأتُ بالتّعرّفِ إلى زملائي الطّلبةِ القادمين من فلسطين أو من باقي الأقطارِ العربيّةِ الأخرى، كانوا طلبةً من صفوةِ شبابِ العالمِ العربيِّ. وبدأْنا نتحاورُ حولَ أوضاعِ الأمّةِ العربيّةِ بماضيها وحاضرِها ومستقبلِها، وقرَّرْنا مساندةَ الحركةِ القوميّةِ العربيّةِ، ورفضْنا البقاءَ في مقاعدِ المتفرّجين.

ودُعيتُ للانضمامِ إلى حلقةٍ من حلقاتِ القوميّين العربِ، فلبّيْتُ الدّعوةَ، وكنّا ندرسُ فيها مبادئَ القوميّةِ العربيّةِ، وكان من بينِ الزّملاءِ الّذين شاركوا في الحلقةِ نضال السّختيان، وأسامة السّلفيتي.

كذلك ترشّحتُ لعضويّةِ قيادةِ اتّحادِ طلبةِ فلسطين ضمنَ قائمةِ القوميّين. نجحتُ وسافرتُ مع زملائي إلى القاهرةِ، ومنها اَستقلَّينا القطارَ إلى غزّة، لحضورِ مؤتمرٍ عامٍّ لاتّحادِ الطّلبةِ العربِ في العامِ ١٩٦٢، وواجَهَتْنا في طريقِنا صعوباتٌ عدّةٌ، فقد تعمّدتِ السّلطاتُ المصريّةُ تعطيلَ سفرِنا واَضطررْنا إلى المبيتِ ليلةً في العراءِ إلى جانبِ قناةِ السّويسِ بعدَ ذلك دخلْنا الصّحراءَ وصولًا إلى غزّة.

إلّا أنّ اَلتزامي بالعملِ المُنظّمِ أخذَ يخفُّ وبردَتْ همّتي النّضاليّةُ في صفوفِ حركةِ القوميّينَ العربِ، مع الإشارةِ إلى أنّي لم أكنْ مُسجّلًا عضوًا في الحركةِ، إنّما كنتُ ضمنَ مَنْ يوصفون بالأنصارِ أو المؤيّدين، وفقًا للتّصنيفاتِ التّنظيميّةِ الحزبيّةِ المعروفةِ والمتداولةِ.

لم أنتظمْ خلال دراستي في الجامعةِ الأميركيّةِ في بيروت، وتقصّدتُ أن تبقى علاماتي التّحصيليّةُ سيّئةً ولا تشجّعُ على الاستمرار، وذلك لإجبارِ والدي على السّماحِ لي بالسّفرِ إلى الولاياتِ المتّحدةِ الأميركيّةِ، ونجحتُ في ذلك وحصلتُ على قبولٍ من جامعةِ ولايةِ شمالِ تكساس (North Texas State University) واَلتحقتُ بها.

هناكَ فقط شعرتُ بالارتياحِ، وصارتْ دراستي في غايةِ اليسرِ والسّهولةِ وانتظمتُ في محاضراتِ الجامعةِ ودروسِها. ونلتُ شهادتي سنةَ ١٩٦٥ في مجالِ إدارةِ الأعمالِ (Management and Business Administration).

وكعادةِ والدي في حرصهِ على بقائي إلى جانبهِ، عاجلَني برسالةٍ قبلَ تخرّجي بفترةٍ قصيرةٍ، حثَّني فيها على وجوبِ عودتي بسرعةٍ «لأنَّ هناكَ موضوعًا مهمًّا يجبُ أنْ تتعاملَ معهُ، وجدتُ لكَ شغلةً مهمّةً».

لم يوضحْ ماهيّةَ ذلك الموضوعِ أو تلك الوظيفةِ، وأصرّ على عدمِ بقائي يومًا واحدًا بعدَ تخرّجي في الولاياتِ المتّحدة الأميركيّةِ، على الرّغم من أنّي كنتُ قد خطّطتُ للقيامِ بجولةٍ واسعةٍ في الرّبوعِ الأميركيّةِ تمتدُ بضعةَ أسابيعَ بهدفِ التّعرّفِ أكثر على تلك الدّولةِ وولاياتِها.

وتحتَ ضغطِ الوالدِ ورسالتهِ وإصرارهِ على عودتي السّريعةِ بدون إبطاءٍ، لبّيْتُ من دونِ أن أُحقّقَ رغبتي السّياحيّةَ.

«الشّغلةُ المهمّةُ» كما أخبرني والدي، كانت حصولي على وظيفةٍ في البنكِ المركزيِّ الأردنيِّ الّذي كان قد تأسّسَ حديثًا سنةَ ١٩٦٤. وكان محافظهُ في ذلك الوقتِ د. خليل السّالم الّذي يربطهُ بوالدي وبعائلتي رباطٌ من الصّداقةِ، وهكذا وجدتُ نفسي موظّفًا حكوميًّا في البنكِ المركزيِّ بإرادةِ والدي أيضًا.

في نهايةِ آذار / مارس عامَ ١٩٦٦ تعرّضتْ عائلتُنا إلى فاجعةٍ حقيقيّةٍ ومأساةٍ داميةٍ أثّرتْ فينا لسنواتٍ طوالٍ، ففي تلك السّنةِ فَقَدْنا أخي صَفْوَتْ الّذي كان يدرسُ في مدرسةِ الفرير بالقدسِ، وهوَ السّادسُ بين أشقّائي وشقيقاتي ترتيبًا، توفّي رحمهُ الله ليلةَ الاحتفالِ بتخرّجهِ من المدرسةِ وكان ذلك رابعَ أيّامِ عيدِ الأضحى.

ذهبَ صَفْوَتْ إلى القدسِ للمبيتِ عندَ صديقٍ لهُ اَستعدادًا ليومِ تخرّجهِ في اليومِ التّالي. في تلك اللّيلةِ كان صديقهُ يلعبُ بمسدّسٍ وخرجتْ منهُ رصاصةٌ أصابتْ شقيقي مباشرةً فتوفّي فورًا تلك اللّيلة.

كان صَفْوَتْ في الثّامنةَ عشرةَ من عمرهِ، متفوّقًا في مدرستهِ ووسيمًا للغايةِ. وبوفاتهِ تغيّرتْ أجواءُ حياتِنا كلّيًّا، وتأثّر والدي ووالدتي أيّما تأثّرٍ بتلك المأساةِ، وتغيّر نمطُ حياتِهما.

وكنتُ واَبن عمّي سمير قد أخذْنا إجازةً لقضاءِ أيّامِ العيدِ في بيروت، وفي طريقِ عودتِنا إلى عمّان اَصطحبتُ معي في السّيّارة ليلى الصّلح، اَبنةَ الزّعيمِ اللّبنانيِّ رياض الصّلح، لزيارةِ أختِها السّيّدةِ بهيجة زوجةِ السّفيرِ اللّبنانيِّ في عمّان المرحوم د. سعيد الأسعد، وكانتْ معنا أيضًا اَبنة خالي نزار الصّلح، واَسمُها هزار إلّا أنّ الجميعَ يعرفُها باَسم نزار، وهي اَبنةُ زكائي يوسف الصّلح. فوجِئْنا ونحنُ على حدودِ الرّمثا أنّ مديرَ شرطةِ نابلس طلبَ من مسؤولِي الحدودِ الإيعازَ لي التّوجّه مباشرةً إلى نابلس وبأقصى سرعةٍ ممكنةٍ وعدم التّوجّهِ إلى عمّان. أُصبتُ باَرتباكٍ شديدٍ فورَ إبلاغِهم إيّايَ بذلك، وقدّرتُ أنّ أمرًا جللًا قد وقعَ، أو أنّ كارثةً حلّتْ بالعائلةِ، اِتّصلتُ بالبيتِ وطلبتُ الحديثَ مع والدي لكنّهم لم يوصلوني به، وإنّما حوّلوني إلى بيتِ عمّي الحاج معزوز، فردّ عليَّ اَبنُ عمّي عبّاس المصري، وقالَ لي: «اِحضرْ بسرعةٍ فقد تعرّضَ أخوكَ صَفْوَتْ لحادثٍ». فذهبتُ سريعًا إلى عمّان لإيصالِ السّيّدتَين، ثمّ توجّهتُ مباشرةً إلى نابلس.

توجّهتُ واَبن عمّي سمير إلى جسرِ دامية بالسّيّارةِ، وكنتُ على حافةِ الانهيارِ، على الجسرِ وجدتُ نصفَ أفرادِ عائلتي باَنتظاري. أُصِبْتُ بالانهيارِ التّامِّ فورَ علمي بما جرى لأخي صَفْوَتْ.

في نابلس، كان والدي ووالدتي في حالةٍ متردّيةٍ لا يعلمُها إلّا الله، وقد وصلتُ بعدَ دفنِ شقيقي. وفي اللّيلةِ التّاليةِ لوفاتِه، كنتُ أتقلّبُ على فراشي أخاطبُ ربّي قائلًا: «يا ربّ إذا بترجِّعْ صَفْوَتْ وتأخذْني، أنا جاهزٌ ومستعدٌّ».

واَجتمعَ أخوتي وأخواتي وأفرادُ العائلةِ حولَ تلك المأساةِ، وعندَما حضرَ أخي ماهر من بيروت، اَستقبلْتُهُ في مطارِ قلنديا في ضواحي القدسِ، وأُصيبَ هوَ الآخُر بصدمةٍ خفيفةٍ نجّاهُ الله منها.

عقبَ الحادثةِ، جاءتْ جاهةٌ ضخمةٌ تضمُّ المئاتِ من رجالاتِ جبلِ الخليلِ ـ الجبلِ والمدينةِ ـ إلى منزل عمّي الحاج معزوز برئاسةِ الشّيخِ محمّد عليّ الجعبري. وتجمّع خارجَ المنزلِ وفي الشّوارعِ المحيطةِ المئاتُ من أهالي نابلس ليشاهدوا مراسمَ تسويةِ تلك المأساةِ الحزينةِ. وقال الشّيخ الجعبري: «نحنُ الجملُ وأنتم السّكّينُ، ولكم ما تريدون». وتحدّث باَسمِ عائلتي الحاج معزوز، وسامحَ القاتلَ، ولغايةِ الآنَ لا نعرفُهُ ولم نسألْ عن اَسمِهِ.

بعدَ مرورِ كلّ هذه السّنواتِ على تلك المأساةِ الّتي غيّرتْ حياتَنا بشكلٍ واضحٍ، فإنّني ما زلتُ أحسُّ بغصّةٍ في حلقي كلّما تذكّرتُها أو مرّتْ في خاطري، وكأنّ تلك الحادثةَ الأليمةَ الّتي واجهَتْنا في مستهلِّ أعمارِنا لا تزالُ حيّةً أمامي وكأنّها حدثَتْ للتّوِّ أو السّاعة، لكنْ هي مشيئةُ الله وقضاؤهُ.

في تلك الأثناءِ، تعرّفتُ إلى زوجتي سمر البيطار عن طريقِ صديقٍ مشتركٍ لي ولأهلِ سمر، هوَ أحدُ أبناءِ عمومتي زهير المصري وزوجته فريال، وكلاهما الآنَ في دارِ الحقِّ، كانتْ سمر طالبةً في كلّيّةِ التّمريضِ التّابعةِ للخدماتِ الطّبّيّةِ الملكيّةِ، وكان والدُها طبيبَ أسنانٍ في الخدماتِ الطّبّيّةِ، وهوَ د. سعد البيطار الّذي كان صديقًا للدّكتور عبد السّلام المجالي.

عُقِدَتِ الخطبةُ سنةَ ١٩٦٦، وحضرتْ جاهتي من نابلس وكانتْ تضمُّ عمّي الحاج معزوز وعمّي حكمتْ وعمّي ظافر ووالدي، وتوجّهْنا إلى معسكرِ الملكِ طلال في منطقةِ المحطّةِ حيثُ يسكنُ أهلُ زوجتي. وكان في اَستقبالِهم حابس المجالي، وعبد الوهاب المجالي، وعبد السّلام المجالي ومتري الشّرايحة وغيرهم، عدا أقرباء والدِ خطيبتي.

بدأتُ التّخطيطَ للزّواجِ سريعًا، لكنْ فاجَأَتْنا حربُ حزيران ١٩٦٧ الّتي تسبّبَتْ بإطالةِ مدّةِ خطوبتي.

كانتْ هزيمةُ ١٩٦٧ ضربةً صاعقةً أصابَتْني بصدمةٍ تركتْ آثارَها في نفسي وفكري، كما أصابتْ جيلي بالشّعورِ بالهزيمةِ والإخفاقِ، ولم تقفْ تلك المسألةُ عندَ حدودِ الهزيمةِ العسكريّةِ، وفقدانِ وطنٍ بكاملِهِ بِما في ذلك القدس والأماكن المقدّسة الإسلاميّة والمسيحيّة الأخرى في بيتَ لحمَ والنّاصرةِ، وفقداني لأهلي ولمدينتي نابلس، بل تعدّتْ ذلك لتصلَ إلى هزيمةٍ عميقةٍ لوجداننا وشعورِنا القوميِّ. وتلك هيَ المشكلةُ الأكبرُ، فقد بدأَ المشروعُ القوميُّ العربيُّ يهتزُّ في عقولِنا، وبدأَ المشروعُ النّاصريُّ أيضًا يخفتُ ويتلاشى.

كنتُ خارجًا برفقةِ زميلي صفوان طوقان من دوامي في البنكِ المركزيِّ في ذلك الوقتِ من عمارةِ عاكف الفايز في شارعِ الشابسوغ وسطَ البلدِ، وكانتِ السّاعةُ الثّانيةَ بعدَ الظّهرِ عندَما علمتُ بنشوبِ الحربِ وقصفِ الطّائراتِ المصريّةِ إسرائيل، فقلتُ لهُ: «الحمدُ لله أنّ الحربَ وقعتْ، فقد آنَ آوانُ اَسترجاعِ فلسطين»، واَتّجهتُ إلى شقّتي في الدّوّارِ الأوّلِ حيثُ كنتُ أسكنُ مع اَبنِ عمّي سمير حكمتْ.

سارتِ الأمورُ بسرعةٍ فائقةٍ في تلك الحربِ، لم نشعرْ إلّا بالضّفّة الغربيّة بكاملِها محتلّةً وكذلك سيناء والجولان، وصلَ الجيشُ الإسرائيليُّ إلى قناةِ

السّويس، وخلالَ تلك الفترةِ ما بين الخامسِ من حزيران/ يونيو إلى الثّامنِ منهُ، لم يخطرْ ببالي أن أتفقّدَ أهلي في نابلس، لأنّني كنتُ أظنُّ أنّ المعركةَ تدورُ خلفَ الخطِّ الأخضرِ وليسَ في الضّفّةِ الغربيّةِ.

ويومَ الخميسِ في التّاسع من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وهو موعدُ ذهابي إلى نابلس، كما كانتِ العادةُ كلَّ أسبوعٍ، لم أتمكّنْ من ذلك، لأنّ إسرائيل كانت قد هدّمَتِ الجسورَ الواصلةَ بين الضّفّتَين، وجلستْ سعيدةً بفعلتِها على ضفّة النّهرِ.

قمتُ بزيارةِ منزلِ أهلِ خطيبتي واَستمعتُ كغيري إلى خطابِ تنحّي جمال عبد النّاصر، وكأنّني اَستفقتُ من غيبوبتي، وشعرتُ بالحرجِ الشّديدِ أمامَ أنسبائي، شعرتُ كوني شابًّا عربيًّا قوميًّا متحمّسًا لقوميّتهِ ولأمّتهِ أنّ كلَّ الآمالِ والطّموحاتِ وحتّى الأحلامِ الّتي بَنَيْتُها تبدّدَتْ وتلاشتْ أمامي كخيطِ دخانٍ؛ وإنّ ما بنيتهُ عليها من آمالٍ وطموحاتٍ أصبحتْ كلُّها مجرّدَ سرابٍ، شعرتُ في الأسابيعِ والأشهرِ اللّاحقةِ بمعنى فقدانِ أهلي ووطني؛ فقد كنتُ وحيدًا في عمّان وعلى وشكِ الزّواجِ، ولوهلةٍ شعرتُ بمستقبلٍ مظلمٍ ينتظرُني ويحيطُ بي.

بعدَ أسابيعَ قليلةٍ من الاحتلالِ، تسلّلْتُ إلى الضّفّةِ الغربيّةِ لزيارةِ أهلي في نابلس عبرَ منطقةٍ تُعرفُ بـ«مخاضة البيضا»، وهي من أراضي طوباس، للمرّةِ الأولى في حياتي رأيتُ جنودَ الاحتلالِ الصّهيونيِّ يتجوّلون بكاملِ حريّتهم في الضّفّة الغربيّة، ما زادَ من شعوري بالغصّةِ وبالعجزِ وبالمرارةِ الّتي ما زلتُ أحسُّها حتّى هذا اليومِ.

فـي تلك الأثناءِ أُصيبَ والدي بالشّللِ التّامِّ نتيجةَ إصابتهِ بمرضِ الأعصابِ (Multiple Sclerosis) ما عزّزَ من قناعتي بتأجيلِ الزّواجِ.

بقيتُ في نابلس مدّةً، مُقرِّرًا عدمَ العودةِ إلى عمّان للاهتمامِ بوالدي، لكنَّ أهلي أقنعوني بأنّ بقائي لن ينفعَهُ بشيءٍ، وأنّ الأفضلَ أن أعودَ للالتحاقِ بعملي، فاَقتنعتُ بعدَ أن اَطمأنّتْ نفسي إلى اَستقرارِ أوضاعِ عائلتي.

فورَ عودتي، اَتّفقْنا نحنُ خاطبو الشّقيقاتِ الثّلاثِ مع بعضِنا، أنا وسطام حابس المجالي وزياد مراد العقيد في سلاحِ الهندسةِ الملكيِّ، أن لا نقيمَ أيّةَ اَحتفالاتٍ بزواجِنا.

حدّدْنا صباحَ يومِ الواحدِ والثّلاثينَ من كانون الأوّل / ديسمبر ١٩٦٧ ليصطحبَ كلٌّ منّا زوجتَهُ إلى شهرِ العسلِ. فذهبتُ وسمر إلى بيروت، وكذلك فعلَ زياد وعروسه سحر، بينَما ذهبَ سطام وزوجته أمل إلى لندن.

لم يكنْ شهرَ عسلٍ بالمفهومِ الشّائعِ، فقد عدتُ إلى عمّان بعدَ أربعة أيّامِ عسلٍ، بسببِ ظروفي الماليّةِ والاقتصاديّةِ الصّعبةِ، كنتُ أمرُّ بحالةٍ تقشّفٍ حقيقيّةٍ حتّى أستطيعَ المواءمةَ بين راتبي من البنكِ المركزيِّ وبينِ اَحتياجاتي المتعدّدةِ.

فقد كنتُ قد تزوّجتُ حديثًا واَستأجرتُ بيتًا يحتاجُ إلى تأثيثٍ، في جبلِ عمّان بالقربِ من مستشفى فرح الحاليِّ، وتعودُ ملكيّتهُ للحاج عادل حبيبه.

كان البيتُ مُهْمَلًا وفي غايةِ السّوءِ، وخاليًا منذُ سنواتٍ طويلةٍ، وعندَما سكنتُهُ مع زوجتي كادتِ الرّطوبةُ أن تقتلَنا في ليالي الشّتاءِ.

كان راتبي الّذي كنتُ أتقاضاهُ من البنكِ المركزيِّ لا يتجاوزُ السّتّينَ دينارًا، واَضطرّتْ زوجتي إلى العملِ في مكتبةٍ في فندقِ الأردنّ، براتبٍ وقدرهُ اَثنان وعشرون دينارًا، حتّى تساهمَ في مصاريفِ البيتِ وقضاءِ اَحتياجاتِنا الضّروريّةِ. وكانتْ قد تركتِ الدّراسةَ في كلّيّةِ التّمريضِ بعدَ خطوبتِنا، لكنّها لم تستطعِ الاستمرارَ في عملِها أكثرَ من أربعةِ أشهرٍ لصعوبةِ توفيقِها بين العملِ

ومسؤوليّاتِها المنزليّةِ والعائليّةِ، فاَختارتِ المنزلَ والعائلةَ وضحّتْ بالعملِ.

بعدَ اَلتحاقي بعملي في البنكِ المركزيِّ، بقيتُ أتردّدُ إلى نابلس حتّى العامِ ١٩٧٣ عندَما أصبحتُ عضوًا في مجلسِ النّوّابِ ثمّ وزيرًا في حكومةِ زيد الرّفاعي. بعدَ ذلك، لم أزرْ نابلس إلّا عامَ ١٩٨٩ حينَ خرجتُ من الحكومةِ ومن مجلسِ النّوّابِ، ولم ألتقِ والدي إلّا سنة ١٩٨٣ عندَما طلبَ رؤيتي، وبسببِ إصابتهِ بالشّللِ التّامِّ حضرَ إلى الجسرِ في سيّارةِ إسعافٍ تابعةٍ لأحدِ المراكزِ الصّحّيّةِ في نابلس، وعبرهُ إلى الأراضي الأردنيّةِ، حيثُ اَلتقيتهُ للمرّةِ الأخيرةِ، ولم أرَهُ بعدَ ذلك، ولدى وفاتهِ رحمهُ الله سنةَ ١٩٨٦، لم أتمكّنْ من وداعهِ أو المشاركةِ في جنازتهِ، وكنتُ حينئذٍ أحضرُ اَجتماعاتِ مجلسِ وزراءِ الخارجيّةِ العربِ في جامعةِ الدّولِ العربيّةِ في تونس.

هذا الواقعُ الّذي ذكرتهُ أعلاهُ يمثّلُ بدقّةٍ حالَ التّشرّدِ الفلسطينيِّ والظّروفِ القاهرةِ الّتي واجَهَها الشّعبُ الفلسطينيُّ.

لكنْ، يبقى العامُ ١٩٧٣ محطّةً اَنتقاليّةً في حياتي، لأبدأَ رحلتي إلى مجلسِ النّوّابِ والحكومةِ.

وتلك المحطّةُ بدأتْ بعدَ سِنِّ الثّلاثين... وشكّلتْ حلقةً من حلقاتٍ لا تزالُ مستمرّةً.

P U R E I S T H E T R U T H

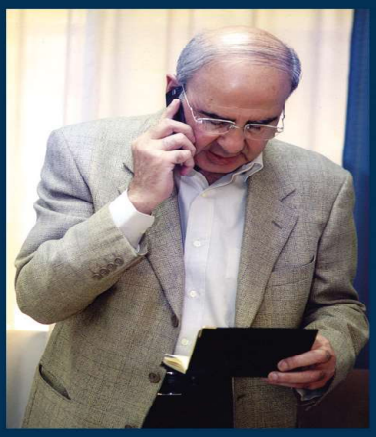

مذكرات طاهر المصري

الحقيقة بيضاء

ومهما كانتِ الظّروفُ الّتي واجهَتْني أو قَيَّدَتْ عملي، حرصتُ على الالتزام بقناعاتي، واَلتزمتُ بمبدأِ النّقدِ الذّاتيِّ لكي أتعلّمَ من أخطائي وأراجعَ مواقفي وأقيِّمَها حتّى أتمكّنَ من متابعةِ مسيرتي في خدمةِ الشّأنِ العامِّ.

وظلَّ ميزانُ حياتي السّياسيّة يعتمدُ على مبدأِ المكاشفةِ والمواجهةِ وليس على المواربةِ والمهادنةِ. وهذا ما منَحَني في مجملِ رحلتي الكثيرَ من الطّمأنينةِ والرّضا عمّا أفعلُهُ وأقولهُ بكلِّ حرّيّةٍ دونَ التّوقّفِ عندَ حساباتٍ تبدو لي في النّهاية خاسرةً تمامًا.

ونظرًا إلى أهمّيّةِ التّطوّراتِ والأحداثِ السّياسيةِ الّتي طبعتْ مسيرتي المهنيّةَ، فكنتُ في خضمِّ مراحلَ واَستحقاقاتٍ مرَّ بها وطني الأردنّ تحديدًا وأمّتي العربيّةِ عمومًا، وبما أنّني عايشتُ حقباتٍ ومراحلَ شهدتْ تغيّراتٍ جذريّةً؛ لذا، عزمتُ على تقديمِ ما خبرتُهُ وما عايشتُهُ في هذا الكتابِ بكلِّ شفافيّةٍ وموضوعيّةٍ.

ويبقى هدفي أن أزوّدَ القارئَ الأردنيَّ والعربيَّ بما علِمتُهُ وتعلَّمتُهُ من دونِ تجميلٍ للوقائعِ، أو تحريفٍ لها بغيةَ تجميلِ صورتي ومسيرتي على حسابِ الحقيقةِ.

فأنا لم أكتبْ هذه المذكّراتِ إلّا بهذه الرّوحِ. قضيتُ السّاعاتِ والأيّامَ في التّدقيقِ والتّمحيصِ، وحرصتُ على تجنّبِ أيِّ اتّهاماتٍ أو الاستنادِ إلى موادّ مزوَّرة.

لقد قلتُ في هذا الكتابِ ما لي وما عليَّ. وأملي أن يجدَ فيه مَنْ يطالعُهُ ما يزيلُ الغموضَ ويسلّطُ الضّوءَ على التّطوّراتِ الّتي أدّتْ إلى ما نحن فيه أردنيّين وعربًا.

وأعتقدُ أنّني قمتُ خلالَ هذه المسيرةِ بكلِّ ما اَستطعتُ إليه سبيلًا.

والله وليُّ التّوفيقِ.

طاهر المصري

9 786144 862629